كان فيبس يعلم أنه من المفترض أن ينحني ويهمس بكلمات حب في أذنها، لكن لم يكن بباله أي شيء آخر يمكنه قوله.

رفعت فلور دي ليس عينيها الزرقاوين الجميلتين لتنظر إليه، وقالت: «هل «آه» هي كل ما يمكنك قوله لي؟»

لم يعلم فيبس ما كان عليه فعله بالضبط بعد ذلك، فوقف وقال بصوت أشبه بالصياح: «يا له من تطريز رائع!»

بدأت الفتيات تتحدثن في الحال عن تطريزهن، وكل منهن تحاول جذب القائد فيبس للتحدث معها. رفعت إحداهن نظرها، ونظرت من الشباك، وقالت: «هناك فتاة ترقص وتعزف الرقّ في الميدان.»

قالت فلور دي ليس، وهي تعود إلى ما كانت تحيكه: «أظن أنها غجرية.»

تزاحمت الفتيات الأخريات مندفعات نحو النافذة. واستراح فيبس بابتعادهن عنه. كان يعلم أن السيدة ألويز ترغب في تزويجه ابنتها، لكن كانت هناك فتيات أخريات في باله.

قالت فلور دي ليس: «أيها القائد فيبس، ألم تقص علينا من قبل مغامرتك العظيمة في إنقاذ إحدى الفتيات الغجريات؟ أليس من الممكن أن تكون هي نفسها تلك الفتاة الموجودة بالخارج؟»

توجه فيبس ناحية الشرفة التي طلت منها جميع الفتيات على ما يحدث بالخارج. ومع فتح النوافذ تمكنت الفتيات من سماع قرع أجراس نوتردام من بعد.

قال فيبس: «نعم، ها هي نعجتها.»

قالت إحدى الفتيات: «انظروا إلى ذلك الرجل الذي يقف على سطح الكنيسة!»

ردت أخرى: «إنه كلود فرولو، رئيس الشمامسة. انظروا كيف يحدق فيها! يا له من أمر غريب أن يهتم بفتاة غجرية.»

قالت فلور دي ليس: «أيها القائد، لتنادي على تلك الغجرية وتطلب منها الصعود إلى هنا. سنمرح بالتأكيد.»

قال: «أشك أنها ستتذكرني.»

نظرت فلور دي ليس إليه، وتجهمت.

قال: «حسنًا، إذن سأفعل.»

صاح من الشرفة: «أيتها الفتاة!»

توقفت إزميرالدا، ونظرت إليه بأعلى. وأردف هو: «اصعدي إلى هنا!»

تورد وجه إزميرالدا خجلًا، وبدأت تسير عبر مجموعة الناس المحيطة بها متجهة نحو المنزل.

وفي غضون ثوانٍ كانت بأعلى داخل الشقة. انبهرت الفتيات بجمالها، الأمر الذي أتعسهن وجعل الصمت الشديد يخيم عليهن.

كسر فيبس حاجز الصمت بقوله: «يا لها من فتاة فاتنة! ألا تعتقدين ذلك، يا فلور دي ليس؟»

قالت: «لا بأس بها.» وبدأت الفتيات الأخريات في التهامس فيما بينهن.

سأل فيبس إزميرالدا: «هل تتذكرينني؟»

أجابت بعذوبة: «نعم، أتذكرك.»

ابتسم وقال: «لقد غادرت فجأة تلك الليلة التي التقينا فيها، وتركت وراءك الأحدب، فهل أخفتك؟»

أجابت إزميرالدا: «كلا، على الإطلاق!» لم تلق تلك المناقشة الدائرة بين فيبس والفتاة الغجرية إعجاب فلور دي ليس. في الواقع، هي لم تكن تحب فيبس أن يتحدث مع أية فتاة أخرى.

سأل فيبس: «ما الذي كان ذلك المسخ يريده منك؟»

أجابت الفتاة الغجرية: «لا أدري.»

قال القائد: «حسنًا، لقد تلقى جزاء ما فعله؛ فقد قضى بعض الوقت كما تعلمين في عمود التشهير.»

قالت إزميرالدا: «نعم، أعلم. لقد لقي ذلك المسكين معاملة شديدة القسوة في ذلك اليوم.»

صاحت السيدة ألويز: «يا إلهي! ما هذا الحيوان؟» كانت دجالي قد علقت في طيات تنورة السيدة العجوز.

قالت فلور دي ليس: «إنها نعجة! لقد سمعت عن هذه النعجة ... لتجعليها تؤدي إحدى الحيل.»

ردت إزميرالدا: «لا أعلم ماذا تعنين.»

قالت إحدى الفتيات: «هيا، أخبرينا ما هذا الذي تعلقينه حول عنقك؟»

أمسكت إزميرالدا بالكيس الصغير بين يديها، وقالت: «هذا سري.»

ضاقت السيدة ألويز ذرعًا بالفتاة، وقالت لها: «إذا كنت لن ترقصي لنا فما الذي جعلك تصعدين؟ لتغادري الآن! أنت لا تنتمين إلى هذا المكان.»

بدأت إزميرالدا في البكاء وهي في طريقها نحو الباب. ألقت نظرة أخيرة على فيبس الذي قال: «لا يمكنك المغادرة هكذا. لتعودي وتؤدي لنا إحدى رقصاتك! كما أنك لم تخبرينا بعد باسمك.»

قالت: «إزميرالدا»، وهي تفك حبلًا مربوطًا برقبة النعجة وتفتح الكيس. سقطت الحروف الأبجدية على الأرض، وأخذت دجالي تخلطها معًا بقدميها الصغيرتين.

صاحت إحدى الفتيات: «انظروا إلى ما فعلته النعجة!»

اندفعت فلور دي ليس، ورأت أن دجالي قد رسمت اسم «فيبس». فسألت: «أفعلت النعجة هذا؟»

أجابت صديقتها: «نعم.»

قالت فلور دي ليس لإزميرالدا غاضبةً: «كيف تعلمت فعل ذلك؟ لا بد أنك ساحرة.»

التقطت إزميرالدا الحروف سريعًا، وغادرت الشقة. نظر فيبس للفتيات اللاتي تجمعن حول فلور دي ليس، واتخذ قراره؛ ترك الشقة ولحق بالغجرية.

كان كلود فرولو جالسًا أعلى برج كاتدرائية نوتردام يراقب إزميرالدا.

تساءل كلود فرولو عند رؤيته شخص ما يدفع الحشد المتجمع للخلف: «من هذا الرجل الذي يصاحبها؟ إنه بيير جرينجوار، لكن ما الذي يفعله معها؟»

خرج كلود فرولو لتبين ما يحدث، لكن إزميرالدا كانت قد اختفت حينذاك.

سأل كلود فرولو الرجل الذي كان يقف بجانبه: «أين ذهبت الفتاة؟»

أجابه: «لا أعلم. لقد غادرت فجأة، وصعدت تلك البناية. نادى عليها شخص ما من النافذة.»

سار كلود فرولو تجاه سجادة إزميرالدا الصغيرة التي اعتادت الوقوف والرقص عليها، وسأل بيير: «ما الذي تفعله هنا؟»

أخاف صوت كلود فرولو الغليظ الشاعر؛ فألقى التحية متلعثمًا.

سأل كلود فرولو: «هل تركت العمل كشاعر، وصرت الآن مؤديًا بالشوارع؟»

أوضح بيير أن مسرحيته بالقاعة الكبرى قد باءت بفشل ذريع، وأنه يعيش الآن مع المتشردين في ركن المعجزات.

سأل كلود فرولو: «كيف عرفت الفتاة الغجرية؟»

أجاب بيير: «إنها زوجتي.»

غضب كلود فرولو غضبًا شديدًا، وسأله: «ما الذي تعنيه؟ أنت لست متزوجًا من إزميرالدا.»

بدأ بيير يرتعد وقال: «ليس الأمر كما تظن.» وأخبر رئيس الشمامسة كيف أنقذته إزميرالدا من موت محقق.

سأل كلود فرولو بيير عن كل ما يتعلق بإزميرالدا، وأخبره الشاعر بكل ما يعرفه. وأضاف بيير: «واستغرق منها الأمر شهرين لتعلم دجالي كيف ترسم اسم «فيبس» بالحروف.»

سأل كلود فرولو: «لماذا «فيبس»؟»

أجاب بيير: «إنها تعتقد أنها كلمة سحرية.»

سأل كلود فرولو: «أهي كلمة أم اسم؟»

رد عليه الشاعر متسائلًا: «ما الذي يهمك في هذا الأمر، يا سيدي؟»

غضب كلود فرولو، وصاح في بيير آمرًا إياه بالمغادرة. حقيقة الأمر أنه كان يحب إزميرالدا؛ رآها وهي تعزف على الرق وترقص، وأدرك أنها يجب أن تكون له، مهما كلفه الأمر.

الفصل الحادي عشر

مغامرات جيون

في الصباح التالي، وأثناء ارتداء جيون فرولو ملابسه ليبدأ يومه، لاحظ أن محفظته فارغة؛ فليست معه نقود.

وجه حديثه لكيس القماش الفارغ قائلًا: «يا للقسوة! لقد فرغتَ تمامًا نتيجة للهوي بالليل.»

ارتدى جيون حذاءه، وقال لنفسه إنه سيضطر للذهاب لرؤية أخيه. فكر: «سيلقي عليّ محاضرة، لكنني على الأقل سأحصل على بعض المال.»

وفي طريقه إلى الكنيسة شم جيون الرائحة الذكية للخبز في المخابز، لكن لم يكن معه نقود لشراء إفطار. وعندما وصل أخيرًا إلى كاتدرائية نوتردام لم يستطع أن يتخذ القرار بدخولها. أخذ يسير جيئة وذهابًا لبضع دقائق وهو يفكر.

أخذ يفكر أثناء سيره جيئة وذهابًا أمام الدرجات الرئيسية للكاتدرائية: «لا أريد أن أظل جالسًا هذا الصباح لأستمع إلى محاضرة طويلة، لكنني بحاجة إلى هذه النقود.»

سأل رجلًا كان ينزل درجات الكنيسة الأمامية: «هل رأيت رئيس الشمامسة؟»

أجاب وهو يسير مبتعدًا: «أظن أنه قد أوصد عليه البرج.»

خلع جيون رداءه، وسار إلى الداخل، وهو يفكر: «أخيرًا، سأرى تلك الغرفة التي يحبس فيها أخي نفسه.»

انقطعت أنفاس جيون عند وصوله إلى الغرفة الموجودة أعلى الدرج. كان المفتاح في الباب، فدفعه جيون ليفتحه. كانت الغرفة مظلمة، وفي منتصفها كرسي بذراعين ومائدة، تحيط بهما مجموعة من البوصلات، وهياكل عظمية لحيوانات، وكرة أرضية كبيرة، وجرار زجاجية مملوءة بجميع أنواع السوائل. كانت الكتب ملقاة مفتوحة بجميع أنحاء أرضية الغرفة، وتعلقت خيوط العنكبوت في كل الأركان.

لاحظ جيون وجود مدفأة كبيرة بأحد الأركان، لكن النيران بها كانت مطفأة. وبجانب المدفأة منفاخان مغبران. امتلأت الجدران بكتابات بجميع اللغات، وبدا أن الغرفة بأكملها كانت متهالكة.

كان كلود فرولو جالسًا على الكرسي ذي الذراعين، ومنحنيًا على كتاب كبير مليء بالصور. كان ظهره للباب، ولم يسمع صوته عندما فُتح. كان يتحدث أيضًا مع نفسه، لم يرغب جيون في مقاطعته، لكنه أراد النقود بلا شك.

فكر جيون: «إن أخي لمجنون»، وأدرك بعد ذلك أنه رأى أشياء ما كان من المفترض أن يراها، فرجع للخلف، وأغلق الباب بهدوء، ثم طرقه بقوة.

قال كلود فرولو: «ادخل، يا سير روبرت! لقد كنت في انتظارك.»

دفع جيون الباب فاتحًا إياه، ودخل الغرفة بجرأة.

صاح رئيس الشمامسة: «جيون! إنه أنت.»

حاول جيون الابتسام، وقال: «نعم.»

بدا الغضب على كلود فرولو لحظة، ثم قال: «ما الذي تفعله هنا؟»

بدأ جيون حديثه: «لقد جئت ... جئت لأطلب بعض النقود.» فاندفعت الدماء في وجه كلود فرولو الغاضب. أردف جيون: «وبعض النصح أيضًا؛ فأنا بحاجة للاثنين.»

قال كلود فرولو: «لقد سمعت ما يُقال عن سلوكك المشين بجميع أرجاء باريس. ما حاجتك للنقود؟»

أجاب جيون: «للتبرع بها إحسانًا.»

– «إننا نتبرع بما فيه الكفاية هنا، من الكنيسة. فما القضايا الأسمى التي تريد أن تتبرع بالمال من أجلها؟»

قال جيون: «امممم ... سأتبرع بها للعجوز الشمطاء التي تعيش في ثقب الفئران.»

سأل كلود فرولو، منتقلًا بالحديث إلى موضوع آخر: «وكيف حال دراستك؟ أرسطو؟ هوراس؟»

– «فُقدت كتبي وسُرقت.»

– «أنا في شدة الغضب منك يا جيون.»

– «إذن لن تعطيني بعض العملات فقط لأبتاع بعض الخبز.»

– «من لا يعمل لا يأكل.»

اتكأ جيون للأمام، وأخذ يبكي بحرقة، ثم رفع إحدى يديه لأعلى في الهواء، وألقى خطابًا طويلًا مفصلًا باللغة اليونانية.

سأله كلود فرولو: «والآن، ما هذا؟»

– «هذا لإسخيلوس الذي يتناول فيه التعبير عن الأسى بشأن الحياة.»

ضحك كلود فرولو، وقال: «كان ذلك رائعًا، لكنني أصر على عدم منحك أي نقود.»

– «ولو لشراء حذاء جديد؟ انظر كيف اهترأ نعل حذائي.»

– «سأبعث إليك بحذاء جديد، وليس بالمال.» حينذاك، سمع كلود فرولو فجأة صوت شخص ما يصعد الدرج، فأردف: «يجب أن تختبئ يا جيون. هذا سير روبرت، ويجب ألا يعلم بوجودك هنا.»

– «حسنًا، لن أختبئ إلا إذا أعطيتني النقود.»

قال كلود فرولو، وهو يعطي لأخيه النقود: «حسنًا، حسنًا، هيا ادخل في الخزانة.»

اختبأ جيون، لكن ظل بمقدوره رؤية ما يحدث وسماعه. بعد أن ألقى سير روبرت وكلود فرولو التحية أحدهما على الآخر، أخذا يتحدثان بهدوء لثوانٍ معدودة.

وأخيرًا قال العمدة: «هل أصدر الأوامر للحرس بالقبض على الساحرة الغجرية بتهمة السحر لتتمكن من جلبها إلى هنا في الكنيسة؟»

قال كلود فرولو: «لا، ليس بعد. سأخبرك متى تفعل ذلك.»

في تلك الأثناء عثر جيون على قطعة خبز جافة في الخزانة، فسمع سير روبرت صوت طحن عاليًا، وقال: «يا إلهي، ماذا كان ذلك؟»

نظر كلود فرولو إلى الخزانة، وأجاب: «آه، لا بد أنها القطة، ربما تكون قد عثرت على فأر.» ثم نهض من فوق كرسيه، وأردف: «ما رأيك في أن نتنزه سيرًا حول كاتدرائية نوتردام، ونتفقد الجدران ثانيةً؟»

غادر الاثنان الغرفة، الأمر الذي أسعد جيون كثيرًا لأن ساقيه كانتا قد تخدرتا بحلول ذلك الوقت. أخذ يتأوه أثناء زحفه إلى خارج الخزانة.

هز محفظته، وكان سعيدًا للغاية لسماعه خشخشة النقود بداخلها. ثم نفض التراب عن نفسه، وألقى نظرة أخرى على الغرفة من حوله. كان مكانًا غريبًا حقًّا.

في طريقه إلى الخارج رأى أخاه والعمدة وهما يتفقدان أحد التماثيل الموجودة على جانب الكنيسة، ويتحدثان عن العلامات والتاريخ.

قال جيون: «وما شأني بذلك؟ لقد حصلت على نقودي! يا لنسيم باريس العليل!» أخذ نفسًا عميقًا، ضرب الأرض بقدميه، وقال: «كم أنا سعيد بوقوفي هنا عليك أيها الرصيف الرائع، بدلًا من الجثوم في تلك الخزانة.»

فجأة سمع جيون شخصًا يصيح خلفه.

قال: «يبدو ذلك كصوت القائد فيبس.» واستدار ليرى القائد واقفًا أمامه.

سمع رئيس الشمامسة أخاه ينطق باسم فيبس، وعندما نظر ناحية جيون، رآه يصافح الضابط طويل القامة.

كان ذلك هو الاسم الذي أخبره به بيير! حدث كلود فرولو نفسه قائلًا: «هذا هو الرجل الذي تحبه إزميرالدا … عدوي اللدود!»

صاح جيون: «فيبس! ما سبب صياحك؟»

قال فيبس: «لقد قضيت لتوي صباحًا آخر مع فلور دي ليس وصديقاتها، وهذا يدفعني دائمًا للصياح.»

قال جيون: «هيا، لنذهب إلى مطعم روز آند كراون لتناول الغداء.»

– «لكن ليس معي نقود.»

فنقر جيون على محفظته وقال: «أنا معي!»

سأل فيبس جيون أثناء خشخشته للمحفظة: «من أين لك بكل هذا؟»

– «من أخي، رئيس الشمامسة الأحمق.»

ابتسم فيبس، وقال: «حسنًا! لنذهب وننفق هذه الأموال!»

اعتذر رئيس الشمامسة لسير روبرت، وتبع فيبس وأخاه.

سمع الرجال من بعد صوت رق خافتًا.

صاح فيبس: «يا للهول! علينا بالإسراع.»

سأله جيون: «لماذا؟»

– «لا أريد رؤية تلك الفتاة الغجرية.»

– «تلك التي تصطحب نعجة معها؟»

– «هي بعينها. لقد أقنعتها بمقابلتي الليلة، ولا أريد رؤيتها قبل ذلك الحين.»

غمز فيبس لجيون، ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

– «لقد أقنعتها تقريبًا أنني أحبها بالفعل. وإذا رأتني الآن فستظن أنني ألاحقها، ومن ثم لن أتمكن من التخلص منها أبدًا.»

قال جيون: «يا لك من محظوظ!» وربت على كتف صديقه، ثم أردف: «محظوظ بالتأكيد!»

سرت قشعريرة في جسد كلود فرولو؛ فكان آخر ما يبغي حدوثه هو أن يزداد الرجل الذي تحبه إزميرالدا قربًا منها.

الفصل الثاني عشر

الرجل ذو العباءة السوداء

كان مطعم روز آند كراون مكانًا شديد الازدحام. ظل كلود فرولو يسير جيئة وذهابًا لساعات منتظرًا مغادرة جيون وفيبس المكان. وعندما بدا أمامه أخيرًا أخاه والقائد لحق بهما.

سأل فيبس: «هل بقيت معك أية أموال، يا جيون؟»

فلم يجبه جيون، وبدأ يغني.

وأخيرًا، قال جيون: «لم يتبق شيء في محفظتي، وهذا يدعوني للعودة إلى المنزل.» رفع جيون قبعته لتحية فيبس، ومضى في طريقه.

توقف فيبس أمام أحد التماثيل ليلتقط أنفاسه. وعندما سمع وقع خطوات خلفه استدار.

صاح فيبس: «من هناك؟ ليس معي شيء لتسرقه.»

صاح كلود فرولو من تحت العباءة السوداء التي كان يرتديها: «القائد فيبس!»

سأل فيبس: «كيف عرفت اسمي؟»

أجابه: «إنني لا أعرف اسمك فحسب، لكنني أعرف أيضًا إلى أين تذهب.»

رفع فيبس قبضتيه في الهواء، وقال: «هذا ليس ممكنًا ... اكشف وجهك! ولنتعارك.»

قال كلود فرولو: «أنت تعتزم لقاء الفتاة الغجرية.»

سأل فيبس: «كيف عرفت ذلك؟» وسدد ضربة للرجل الغريب، لكنه أخطأه.

– «لن تذهب إليها. وإن فعلت فسأحرص على إيذائك، لأنك لا تستحقها.»

رد فيبس غاضبًا ومستلًّا سيفه: «ما هذا الذي تقوله أيها العجوز الخَرِف؟ سأذهب لمقابلة الفتاة سواء أعجبك ذلك أم لا. سأقاتلك الآن إن لم تسمح لي بالمرور.»

قال كلود فرولو: «لا حاجة لاستخدام السيوف. أعرف أنك لا تملك مالًا، سآتي معك وأدفع لك مقابل أن تسمح لي بالتحدث معها.»

رد فيبس: «ماذا؟ ... انتظر، قلت إنك ستدفع لي؟ حسنًا، يمكنك المجيء معي، لكن هذا الأمر برمته غريب حقًّا.»

قاد فيبس كلود فرولو إلى نُزل صغير قذر تديره عجوز شمطاء. كانت جدرانه متهالكة ومليئة بالصدوع. قال فيبس: «لتدخل أنت أولًا، واختبئ. سأعود سريعًا ومعي الفتاة. يمكنك التحدث معها لحظات فحسب. وعليك الرحيل بعد ذلك.»

دخل كلود فرولو إلى الغرفة، وخلع رداءه. انتظر إلى أن اعتادت عيناه على الظلام، وفجأة سمع صرير درجات السلم. وعندما رأى ضوءًا تحت مدخل الباب اختبأ سريعًا داخل إحدى الخزانات.

تركت السيدة العجوز فيبس وإزميرالدا في الغرفة. في البداية، كاد كلود فرولو لا يصدق وجودها هناك. كانت إزميرالدا فاتنة، وكاد يغيب عن الوعي لرؤيتها. وبالرغم من الخطيئة التي ينطوي عليها الأمر، فإنه لم يحب أي شيء مطلقًا كما أحب إزميرالدا، ولا حتى أخاه أو كتبه أو الكنيسة.

كانت إزميرالدا منزعجة؛ فلم يرق لها لقاءها بفيبس على انفراد في نُزل. لكنه أخذ يخبرها مرارًا وتكرارًا أنه يحبها.

قالت له إزميرالدا: «أعتقد أنه لا يجدر بي الوجود هنا. فأنا أُخلف بذلك وعدي، ولن أتمكن من العثور على والديّ الآن أبدًا. وستفقد تعويذتي قوتها. لقد قطعت عهدًا لأسرتي الغجرية عندما منحوني ذلك الكيس أنني سأحسن السلوك، ووجودي معك هنا وحدنا ليس بالسلوك الحسن.»

قال فيبس: «ليتني أفهم ما تتحدثين عنه.»

وقفت إزميرالدا هادئة، ودجالي عند قدميها، ثم قالت: «إنني أحبك حقًّا، أيها القائد فيبس.»

فسألها: «حقًّا؟» وأحاط خصرها بذراعه.

ردت إزميرالدا: «أنت شخص حنون، وقد أنقذتني من الرجل ذي العباءة السوداء تلك الليلة.» ثم أبعدت ذراعه عنها وأردفت: «لا يمكنني أن أوفيك حقك من الشكر.»

اقترب فيبس منها أكثر، لكنها ابتعدت ثانيةً. وفي كل مرة كان فيبس يقترب منها كانت تتحرك بعيدًا.

سألته: «هل تحبني؟»

خر راكعًا على إحدى ركبتيه، وقال: «كما لم أحب أحدًا من قبل.»

قالت إزميرالدا: «أكاد أموت من فرط السعادة.»

قال فيبس: «لا يجدر بك الموت، فأنت جميلة»، واقترب منها، وحاول تقبيلها.

لكن إزميرالدا تفادته، ووقفت بجانب النافذة؛ فقد قطعت عهدًا بألا تقبل أي رجل حتى تتزوج أو تلتقي بوالديها ثانيةً.

قالت: «إذا كنت تحبني كما قلت فيمكننا أن نتزوج.»

قال فيبس: «وما حاجتنا للزواج؟ يمكننا العيش هنا معًا في سعادة للأبد، كلٌّ منا مِلكٌ للآخر. لسنا بحاجة إلى كنيسة أو مراسم توضح لنا هذه الحقيقة! ما حاجة اثنين يحب أحدهما الآخر مثلينا إلى الزواج؟» وتقدم للأمام ثانية، ووقف قريبًا للغاية من إزميرالدا.

تسبب ذلك المشهد بالكامل في إفزاع كلود فرولو؛ فقد كان ذلك القائد الأبله يحاول استغلال إزميرالدا، محاولًا إقناعها بأنه يحبها ليتمكن من تقبيلها. لكن كلود فرولو كان يعلم أنه لا يحبها حقًّا. كانت فتاة صالحة وصادقة للغاية، في حين كانت نوايا القائد بعيدة كل البعد عن أي شيء صالح.

فكر كلود فرولو: «يا له من وغد خسيس! سألقنه درسًا!»

أمسك فيبس بشال إزميرالدا، وسحبه من فوق كتفيها. أصبح بإمكانه رؤية الكيس الموجود حول رقبتها بوضوح، فسألها: «ما هذا؟ رأيته بالأمس عندما كنتِ في الشقة.»

قالت: «رجاءً، أيها القائد فيبس. إنه تعويذتي التي ستساعدني في العثور على والديّ. رجاءً، أعد إلي شالي.»

عبس فيبس، وقال: «إنكِ لا تحبينني.»

قالت: «بلى، إنني أحبك. حتى وإن لم يكن بإمكاننا الزواج، أريد أن أظل معك دائمًا. لا أرغب في أي شيء آخر سوى الحياة والحب. لم يعد هناك ما يهم غير ذلك؛ فقد لا أعثر على والديّ أبدًا على أية حال. لقد ظلا بعيدين عني طوال تلك الفترة.»

تقدمت إزميرالدا نحوه، وكادت تقبله، فاندفع كلود فرولو من باب الخزانة. وقبل أن تعي إزميرالدا ما يحدث فقدت الوعي.

الفصل الثالث عشر

إزميرالدا المسكينة

لم يعلم بيير ما يتوجب عليه فعله؛ فقد مضى على اختفاء إزميرالدا ما يزيد عن الشهر. في أحد الأيام كان بالخارج يبحث عنها، فمرّ بالسجن حيث تجمع حشد من الناس.

سأل بيير طالبًا صغير السن: «ما الذي يحدث؟»

– «لا أعلم، يا سيدي. أظن أنهم يحاكمون إحدى الفتيات بتهمة محاولة قتل أحد الجنود. حاولت التحدث مع أخي، رئيس الشمامسة، بشأن هذا الموضوع، لكنني لم أتمكن من الاقتراب منه. كنت آمل في طلب بعض المال منه.»

أدرك بيير أنه يتحدث بالتأكيد مع جيون، فقال: «آسف، يا سيدي الصغير، لكنني لا أملك مالًا أيضًا.»

هز جيون كتفيه، ومضى في طريقه. ولحق بيير بالحشد أعلى الدرج إلى داخل قاعة المحكمة.

سأل بيير، وهو ينظر حوله: «من كل هؤلاء الناس؟ ومن المتهمة؟»

رد رجل كبير كان يقف بجواره: «حسنًا، المرأة التي تقف وظهرها مواجه لنا ... هناك» وأشار إليها وهو يكمل

حديثه: «هي المتهمة بمحاولة القتل. وتقف عجوز شمطاء الآن على المنصة أثناء تحدثنا؛ إنها شاهدة.»

كانت السيدة العجوز التي أشار إليها تقول: «ما أعرفه هو أن هذه الفتاة لم تؤذ ذلك الضابط. لقد رأيتها تلك الليلة، وقبل أن تدخل إلى المكان سمحت لرجل يرتدي عباءة بدخول الغرفة. سمعت بعد ذلك صراخًا، فركضت إلى الطابق الأعلى لأرى لحظة وصولي شخصًا يقفز في الظلام من النافذة لينزل في النهر. وقد ترك وراءه القائد المسكين يرقد على الأرض على وشك الموت.»

أخذ الناس يتهامسون فيما بينهم، وقال سير روبرت: «قبل أن يختفي القائد فيبس، أخبرنا أنه لا يتذكر ما حدث للرجل الذي كان يرتدي العباءة، وكل ما يمكنه قوله هو أن ذلك الرجل أراد مقابلة الفتاة الغجرية، وعرض عليه مالًا ليحجز الغرفة شريطة أن يختبئ في الخزانة.»

أخيرًا استدارت المتهمة، وصُدِم بيير عندما رأى أنها إزميرالدا! بدت في حالة مروعة؛ فكانت شفتاها زرقاوين من البرد، وشعرها أشعث.

قال سير روبرت: «أدخلوا السجينة الثانية!»

انفتح الباب، وسيقت دجالي إلى داخل القاعة. وقف المحامون أمام المخلوقة البائسة، وجعلوها تؤدي خدعها. لم يستطع بيير إمساك لسانه أكثر من ذلك، فقال: «ألا ترون أن دجالي لا تعلم أنها تخطئ؛ إنها ليست سوى نعجة!»

لكن الحشد تجاهله، وألقى سير روبرت بعد ذلك بمحتويات كيس الحروف الخاص بدجالي على الأرض. وأخذت دجالي تحرك الحروف، واحدًا تلو الآخر، إلى أن كتبت اسم «فيبس».

وأخيرًا، قال سير روبرت: «أيتها الغجرية، أنت مسئولة عن الضرر الذي وقع للقائد فيبس. لقد سحرته أنت ونعجتك، ثم تركتماه ليموت. هل تنكرين ذلك؟»

صاحت إزميرالدا: «يا إلهي! حبيبي فيبس المسكين! هذا أمر مروع لا يمكن وصفه بالكلمات.»

سألها سير روبرت ثانيةً: «أكرر سؤالي، أيتها الفتاة الغجرية، هل تنكرين هذه الاتهامات؟»

أجابته: «لقد أخبرتك أنني لا أعلم ما حدث. كان هناك رجل — لا أعرفه — يلاحقني، بل حاول مرة اختطافي، وأنقذني القائد فيبس. فلماذا أؤذيه؟»

نظر إليها سير روبرت بوجه عابس، وقال: «لم يكن هناك غيرك في الغرفة عندما عثرنا على الجندي، وقد رسمت نعجتك اسمه. غدًا ستوضعين في عمود التشهير إلى أن تخبرينا بالحقيقة، وسيُمنع عنك الطعام والشراب إلى أن تعترفي.»

لم تنطق إزميرالدا، ولم يستطع بيير تصديق ما تسمعه أذناه. وتابع المحامون والعمدة والقاضي الحراس الذين ساقوا الفتاة إلى زنزانتها.

كان السجن باردًا ورطبًا ومظلمًا. خلت جدرانه من أية نوافذ. حاولت إزميرالدا التحلي بالشجاعة، لكنها كانت خائفة.

قال سير روبرت: «للمرة الأخيرة هل تنكرين الاعتداء على القائد فيبس؟»

لم تستطع إزميرالدا التحدث، وما كان منها سوى أن أومأت برأسها.

دفعها الحراس إلى داخل الزنزانة، وقيل لها: «حسنًا، ستبقين هنا حتى الصباح، ثم ستوضعين في عمود التشهير.»

صاحت إزميرالدا بكل ما تبقى لديها من قوة: «أنا بريئة!»

أُغلِق الباب خلف إزميرالدا لتبقى وحدها وسط الظلام الدامس. سمعت صوت نبش الفئران في الجدران، وتقاطر المياه خلفها. لم تكن دجالي معها، وبدا العالم من حولها صغيرًا للغاية، والأرض باردة جدًّا، والجدران شديدة الرطوبة. تذكرت مدى بشاعة عمود التشهير لكوازيمودو المسكين، وكيف سخر منه الناس وقذفوه بالأشياء، فلم تتحمل فكرة مشاهدة الجميع لها في هذا الوضع.

صاحت إزميرالدا: «انتظر! إنني أعترف؛ الذنب ذنبي. إنني أعترف!»

فُتِح الباب، ووقف سير روبرت فيه، وقال: «هل تعترفين بكل شيء؟»

– «نعم، أعترف.»

قال سير روبرت: «فتاة صالحة.»

سيقت إزميرالدا ثانيةً إلى قاعة المحكمة، وثغت دجالي ورغبت في الجري نحوها، لكنها كانت مربوطة في المقعد.

قال سير روبرت: «لقد اعترفت الفتاة بكل شيء.»

قالت إزميرالدا: «ليكون عقابي سريعًا، هذا كل ما أسألكم إياه.»

ألقى العمدة خطابًا طويلًا للغاية حتى وصل إلى النطق بالعقوبة، ألا وهي إرسال كلٍّ من إزميرالدا ودجالي إلى السجن الموجود في كاتدرائية نوتردام لتبقيا فيه إلى الأبد.

كان السجن بكاتدرائية نوتردام يزداد ظلمة وكآبة مع النزول لأسفل. وما إن يُرسَل السجناء إليه يكون إطلاق سراحهم ضربًا من المحال. أخذ الحراس إزميرالدا إلى زنزانتها بالأسفل. ولم يبق من إزميرالدا، وهي مثقلة بالأغلال، سوى شبح.

كان قد مضى على وجودها في السجن بضعة أيام عندما فُتِح الباب، ودخل أحدهم زنزانتها. أعماها الضوء، فأغلقت عينيها. وعندما فتحتهما كان كلود فرولو واقفًا أمامها مرتديًا عباءته السوداء.

سألته: «من أنت؟ وما الذي تفعله هنا؟»

أنزل قلنسوة العباءة، وقال لها: «تعالي معي.»

– «إلى أين ... إلى أين تريد أن تأخذني؟»

لم يجبها القِس.

سألت إزميرالدا: «هذا أنت! كنت هناك تلك الليلة. أنت من ألحق الأذى بفيبس، أليس كذلك؟ لماذا تحاول اختطافي؟ لماذا تكرهني؟»

جاء رده: «أكرهك؟ إنني أحبك. لقد كنت سعيدًا قبل أن أعرفك.»

قالت: «وا حسرتاه! وأنا أيضًا كنت كذلك.»

قال كلود فرولو للفتاة الغجرية: «أرجوكِ، دعيني أتكلم»، وأخبرها كيف أحبها، وكيف كان يراها يومًا بعد يوم في الميدان القريب من كاتدرائية نوتردام. وبالرغم من أنه يعلم بارتكابه خطيئة، فإنه أحبها. رقصها، وفستانها، وبشرتها الجميلة ... كل هذه الأمور شغلته عن دراسته وما عرفه طوال حياته.

قال: «تملكتني روحٌ لا سلطان لي عليها. لم أتمكن من نسيانك، وفي ذلك اليوم الرهيب لحقت به، واختبأت في الخزانة. وفي اللحظة التي أوشكتِ فيها على تقبيل ذلك المحتال قفزت من الخزانة، وهاجمته.»

صاحت: «يا إلهي! حبيبي فيبس!»

قال: «لا تنطقي باسمه، إنه السبب في كل ذلك؛ كان من المفترض أن يخبرك أنني أنتظرك. جعلني أدفع له المال مقابل أن أراكِ فحسب. إذا ظننت أنه أحبك يومًا فأنت مغفلة.»

– «لا أصدق ما تقوله؛ فقد أحبني. إذا لم يكن حرًّا فلا رغبة لي في أن أكون حرة. وإن كان ميتًا فلا أهتم إذا كنت سأحيا أم لا. لن أسامحك أبدًا على إيذائك له. أنت المذنب في كل ذلك.»

– «في نهاية الأمر، قرر القاضي وضعك في عمود التشهير، لكن بإمكاني مساعدتك. يمكنني إخفاؤك في الكنيسة.»

قالت: «كلا! إن كان عمود التشهير هو مصيري، فليكن. اتركني الآن! لا أرغب في رؤيتك ثانية أبدًا ... أبدًا!» ودفعته بعيدًا، ثم سقطت على الأرض المبللة المتسخة.

الفصل الرابع عشر

المحراب!

اتضح بعد ذلك أن القائد فيبس لم يلق حتفه. كانت جروحه خطيرة بلا شك، لكنه تماثل للشفاء. كان قد هرب من المستشفى بعد ليلة واحدة من استجواب سير روبرت له، ولم يعد إليها.

عرف فيبس أنه ستجري محاكمة، ولم يرغب في أن يكون له أي دخل بها. فما إن تمكن من الوقوف حتى سافر ليلتحق بالجيش ثانيةً. لكن بالرغم من عودته إلى هناك فلم يشعره ذلك بالسعادة. تمنى بعد فترة قصيرة العودة إلى باريس ليكون مع فلور دي ليس التي لم يعد غيرها الآن في قلبه. لقد نال كفايته من الفتيات الساذجات، خاصةً بعد أن كادت تتسبب إحداهن في مقتله.

كان قد مر شهران على سفر فيبس عند عودته إلى منزل السيدة ألويز وابنتها.

كانت الفتاة تجلس بجانب النافذة عندما جاء فيبس وهو يمتطي حصانه. اندفعت إلى أسفل الدرج لتسمح له بالدخول. كانت سعيدة للغاية برؤيته.

سألت فلور دي ليس: «أين كنت؟»

رد القائد فيبس متجاهلًا سؤالها: «يا إلهي! لقد ازددت جمالًا منذ آخر مرة رأيتك فيها.»

فسحبت ذراعه وأجبرته على الدخول، وهي تقول: «كفى! هيا أخبرني، أين كنت؟» وصعدا إلى الشقة.

– «لقد كنت مصابًا ومريضًا.»

– «مصابًا! ماذا حدث؟»

– «ليست إصابة تُذكر في الواقع، إنها خدش فحسب. كان عراكًا سخيفًا بين مجموعة من الرجال، هذا كل ما في الأمر.»

فبدأت فلور دي ليس في البكاء.

قال فيبس: «أنا بخير الآن، ألا يمكنك رؤية ذلك؟»

– «أنا سعيدة للغاية لأنك بخير. لقد افتقدتك! لماذا كان العراك؟ ومع من؟»

وقف فيبس بجانب النافذة، وقال: «كفى! لقد انتهى الأمر الآن، ولا حاجة لأن أحياه ثانيةً. أخبريني، كيف الحال في باريس؟ ما آخر الأخبار؟ انظري إلى ذلك الحشد هناك، ما الذي يحدث؟»

– «لست متأكدة، لكنني سمعت أنهم سيضعون فتاة غجرية اليوم في عمود التشهير. ربما يكون هذا السبب وراء هذا الحشد.»

سألها وهو شارد الذهن: «ما اسمها؟»

قالت فلور دي ليس: «هل لهذا الأمر أهمية حقًّا؟»

أجاب فيبس، وقد تشتت تفكيره عند نظره إلى شعر فلور دي ليس الأشقر الجميل: «لا أظن.»

سألته: «هل تعدني بألا تتعرض لأي إصابة ثانيةً أبدًا؟»

أجابها: «أعدك.»

– «وهل تقسم على ألا تحب أحدًا غيري؟»

– «أقسم.»

فقالت فلور دي ليس: «حسنًا! هيا لنستنشق بعض الهواء.»

دخلت فلور دي ليس إلى الشرفة، وتبعها فيبس.

دقت الساعة الثانية عشرة، وصاح واحد من بين الحشد: «ها هي!»

قالت فلور دي ليس: «إنها تلك الغجرية الكريهة التي تصطحب نعجة معها.»

شحب وجه فيبس وهو يقول: «مــ … مــ … ماذا؟»

سألته فلور دي ليس: «هل تتذكر؟ لقد رسمت النعجة حروف اسمك. يا إلهي! كان ذلك بشعًا. لماذا شحبت هكذا؟ من يراك يظن أنك قد صُدمت لرؤيتها. ما الخطب؟»

قال فيبس سريعًا: «لا شيء … لا شيء على الإطلاق.»

أخذت إزميرالدا تنادي على فيبس عندما كانوا يسوقونها عبر الميدان. نظرت حولها، فوقعت عيناها على كلود فرولو واقفًا بالقرب من ثقب الفئران.

فقالت: «يا إلهي! كلا، ليس هو! سيلازمني حتى في آخر لحظات لي.»

كان وجه كلود فرولو شاحبًا. كان يرتدي ملابسه الرسمية، لكنه بدا تعيسًا للغاية. سار تجاه إزميرالدا وقال لها: «لم يفت الأوان بعد، يمكنني إنقاذك.»

قالت: «لن أذهب معك أبدًا. ابتعد عني وإلا سأخبر الجميع أنك من هاجمت فيبس، وليس أنا.»

قال: «لن يصدقوك أبدًا.»

صرخت في وجهه: «ماذا فعلت به؟»

– «لقد رحل.»

وبينما كان الحراس يسحبونها بعيدًا نظرت إزميرالدا لأعلى، ورأته ... إنه فيبس. لقد كان هناك!

صاحت: «فيبس! فيبس!» وسقطت على الأرض من هول الصدمة.

وفي خضم الفوضى لم يلحظ أحد إلقاء كوازيمودو بحبل من نافذة برج الأجراس. وفي اللحظة التي أوشك فيها الحراس على رفع إزميرالدا من على الأرض، تأرجح كوازيمودو على الحبل لأسفل، فأوقع الحراس، وأمسك بها.

وأخذ يصيح: «المحراب! المحراب!»

تسلق كوازيمودو الحبل عائدًا إلى قمة كاتدرائية نوتردام، وحمل إزميرالدا إلى الداخل. رأى الناس يصفقون ويهللون؛ فقد أحبوا إزميرالدا وشعروا أنها لا تستحق العقاب. ولم يشعر كوازيمودو بمثل هذا الفخر في حياته قط.